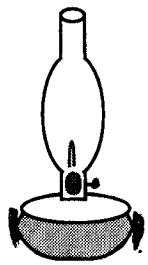

مصباح الجاز

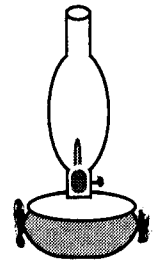

يوسف أبو ريّة

أفكاره في هذا الليل الشائع خارج أسوار الدار تنتمي للعمر الحالي، لكنَّ جسمه يتبع الزمن الأوّل. كان يرتدي منامةً خفيفة، قماشها لامع وطريّ ينساب على البدن الصغير، ويترجرج سروالُها الفضفاض بين ساقيه. يرى نفسه واقفاً تحت سور الفسحة الخالية من الأشجار، ويرى يده تنقل طعاماً - لا يشعر بمذاقه - من أطباقٍ صُفَّتْ على طاولة قديمة، وعينه تجول ما بين دور الجيران المغلقةِ النوافذِ والفسحةِ المضاءةِ بنور ابتُسر من ساعات الغروب، لا يُبين من الخارج غير واجهات الدور.

والإحساس الذي يمور بداخله هو الفرحة بالعودة المطمئنة.. يقع نظره على نعمة وهي في سنواتها الأولى، أيامَ كانت تعيش في بيت الأب. كانت مبتهجة بعودته، تحوم حوله وهي ممسكة بأشياء غامضة بيدها، تتنقّل في المساحة الفارغة ما بين السور وبلاط الفسحة، تنكفئ على الصنبور تملأ آنية من الألمونيوم، لم تر عينه الماء يتدفق، وبرغم ذلك رفعت الآنية وهي تعاني ثقلها، وتمسح قطراتٍ غيرَ مرئية عن وجهها، وظلت تختفي داخل الدار ثم تعود.

(لماذا حين عدتَ ولجتَ هذه الدار بالذات؟ فكم من دار عشنا فيها عبر مراحل العمر المختلفة!)

(ولماذا اختفت هذه الأشجار؟ كان ظلُّها مرتعَ صبانا، نعلِّق على فروعها أرجوحتنا الصغيرة. وأين راحت هذه الأدوات التي لا يخلو منها ركن من أركان الفسحة؟ كنّا نقيم بها بيوتَ الطفولة).

وسمع صراخ إسماعيل من الشارع، كان يهدّد إذا تقاعس أحدٌ في تنفيذ ما طلبه: «هذا ليس من عملي، هو المنوط به هذا الأمر».

واندفع يحادثه بكلام منضبط، لا خلل فيه، خشية الاندفاع العصبي تجاهه، وارتقى السور ليسمعه ما يريد، فرآه في جلبابه الأبيض، وبسحنته التي تنمّ عن رضا نفس مؤقت. وهدّده إسماعيل بأنه إذا لم يطع أوامره فإنّه سيقتحم باب السور، ويهجم عليه ليذبحه.

ولكنه لم يخش تهديده، فهو يخفي له مفاجأة ستبدّل انفعالاته.

كان قد أرسل إليه طرداً من البلاد التي قدم منها يحتوي على هدية رائعة، (يبدو أن الطرد تعثّر في الوصول إليه) وهو يعلم أن صندوق البريد مثبت في أحد جوانب السور، ويكفي أن يمدّ يده إلى الخارج، فيسحب الطرد، ليريه إياه، ويُثْبت صدقَ شعوره الأخويّ.

وواصل صراخه من وراء السور.

ونعمة التي كانت تتردّد في المكان، تركت ما بيدها، ووقفت إلى جواره لمناصرته.

ورآه يدفع بابَ السور، كان وجهه يحمل ملامح المكر التي ينكرها عليها. (هو الآن في حال المناكفة، يريد أن يحدّ من وثوقي، ويظهر أنّني لا أعنيه في شيء.. قد تكون غضبته بسبب تأخّري عليه كثيراً، ويريد أن يظهر قلّة احتياجه لي، أو يواجهني باللوم والإدانة لخيانة أفكاري، لأنني تركت الوطن إلى بلاد لم أكن أكفّ عن انتقادها).

هم الآن في غرفة مضاءة بنور مصباح الجاز.

وعلى غير توقّع رأى أمّه جالسة في ركن، أشاحت بوجهها عنه، وكأنها لا تحفل بقدومه (هي بالتأكيد زعلانة لأني لم أرسل إليها شيئاً).

(وهل شيء ما يفيدها في مقبرتها؟ إنه لا يمكن أن يلبّي لها رغبة من العالم الآخر. ولكنها الأم على كل حال تفرح برزق ابنها، وأنا كنت مقصّراً معها طول حياتها بيننا، فهي منذ رحيل الوالد، لم تمد يدها لأحد منا، بل ظلّت مكتفية بما تجود به الأرض. كم وددت لو أساعدها، ومحدودية راتبي لم

تسعفني في أن أعطيها من فائض الدخل الشحيح).

جلس اسماعيل على حصير الأرض، وجلست نعمة إلى جواره، وتمدّد هو على الكنبة، وقال: «هذا هو الطرد.. فُضَّ أوراقه».

كانوا يتهامسون حتى لا تسمعهم الأم التي أسدلت طرحتها على وجهها، وفردت ساقيها أمامها، وأسندت رأسها على الحائط، لتبدو كأنها مستغرقة في النوم، بينما هو يستشعر يقظتها. نظر إسماعيل إلى الشيء بين الأوراق المفضوضة، وهو يواريه عن عين الأم، ثم هزّ رأسه ومطّ شفتيه دلالة على عدم اقتناعه. حدثته نعمة بصوت خفيض: شيء معقول، ثم إنه غير ملزم.

وأشار إليها بأن يتحدثا بحيث تعجز الأم عن متابعتهما.

ورآها تتمتم في جلستها. جمعت ساقاً وأبقت الأخرى ممدّدة، وألقت عليه نظرة معاتبة، ثم انخلعت بجذعها إلى جهة الحائط، لا تريد النظر إليه.

وحرّك إسماعيل يده تجاهه بحركة من الإبهام والسبابة، أفهمه بها أنه رغب في شيء آخر، فقال له: ها أنت تراني أعود بلا شيء.

وأراد أن يشرح له ظروفه، وكيف دبّر ثمن الهدية، ليظلّ على شعوره الودّي، ولكنه آثر أن يحفظ سرّه لنفسه (هو لن يقتنع أبداً).

ونعمة اقتربت من أذنه ليستغرقا في محادثة هامسة.

واتّجهت عينه إلى ركن الأم، رآها تلتفت نحوه فجأة، رفعت طرحتها، وأرسلتْ بصقة، استطاع أن يتفاداها، فالتصقت على حافة الكنبة، وظلّ الهمس يتردّد بين الأخوين، والأمّ نهضت من جلستها، رفعت مصباح الجاز عن الرفّ، واتّجهت به نحوهم. انتفض لقدومها، لأنه لا يعرف ما تريد، والهمس تلاشى، والوجوه انطمست ملامحها، حين نفخت الأمّ ذبالة المصباح.

قام عن الكنبة يتحسّس الجدران، نادى على أخيه، فلم يجب.. استغاث بالأخت فلم يسمع لها صوتاً (اختفى الجميع من الغرفة). اتّجه نحو الباب مسدّداً يده أمامه، وكان يخشى أن يصادف جسدَ الأم. غير أنه لم يصطدم بشيء، لامست يده الضلفتين، وعندما رفع قدمه ليمرق من الباب هوى جسده في بئر حُفِرَت على عجل، أسفلَ العتبة بالضبط.

القاهرة

قصائد(*)

نور الدين صمّود

١- لزومية القلم

أُحِسُّ بكفّي اضطرابَ القَلَمْ
فَيَسْري إلى القلبِ منه الألَمْ
يَظلُّ يُسائلني: ما الذي
سيكتُبُهُ من بَديع الكَلِمْ؟
وماذا سَأُملي ليَكْتُبَ عنّي
بنُور من الحِبْرِ يُجْلي الظُّلَمْ
إذا حلّقَتْ في السما ريشتي
وظلّتْ تُرفرفُ مثلَ العَلَمْ..
يَخُطُّ الذي مَرَّ في خاطري
فهل بالذي في فؤادي عَلِمْ؟!

٢- قوافل عطشى

(شعر تفعيلي مدوّر)

أقبلتُ أسعى في الصباح من بلادِ النخل
مثلما النسيمُ الهادئُ اللطيفُ، سائلاً،
سُدىً عن فَيْءِ نخلةٍ، تظللتْ بها، في
وقْدةِ اللظى القوافلُ المنتهكَةُ القوائم
المحرّقةُ الأخفاف في بيداءَ، لا يُطفِئُها
السرابُ. قد أنهكها المسيرُ،
أرْمَضَتْ أكبادَها الهواجرْ..
فأطفِئي نارَ القلوبِ بالندى،
وبَلّلي الحناجر.

٣- سفينة الصحراء

(شعر خليلي)

كان في البيدِ رَمز عِزٍّ وفخرٍ
وهو فيها سفينةُ الصحراءِ
تُقطع البيدُ والفيافي عليه
دون ماءٍ، في وقدةِ الرمضاءِ
ما لَهُ دافعٌ لقطْعِ البراري
والفيافي، سوى رَنينِ الحُداءِ
هو فحلُ الفحول يبعث رعياً
وهديراً مصاحَباً برُغاءِ..
دَجّنوه وذلّلوه، فأضحَى
في الشواطي مطيّةَ الغرباءِ

تونس

* ننشر هذه القصائد تاركين للقرّاء إبداء الرأي فيها، بعد أن «احتجّ» الشاعر على حجب بعض أنواع من القصائد، كما جاء في رسالته المنشورة في «بريد الآداب» في العدد ما قبل الأخير. (الآداب).